أمين فارس أنطون الأميوني

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اجل ؛ انها لصفحة شرف وفخار ، من تاريخ حافل مجيد .

تلك هى الصفحة التى كتبها اجدادنا الاكرمون بدمائهم الزكية ، على اديم الارض الصقلية ، وسجلوها بجلائل اعمالهم فى سفر الوجود ، واقتحموا بها وبامثالها ابواب الخلود .

ويالها من ذكريات تثيرها فى نفوسنا تلك الصحف المطهرة صحف جهاد الاجداد فى سبيل الفتح الاسلامى ، وفى سبيل العمران والرقى ونشر المعرفة والمدنية الحقة .

انها لذكريات اجداد كرام بررة ، تركوا لنا راسا فى التاريخ عاليا ، وذكرا فى الخافقين مجيدا ، انهم لقوم قهروا فى سبيل الله وسبيل المدنية اشاوس الارض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة ايمانهم ومتانة سواعدهم وشدة شكيمتهم على كل معترض لهم فى طريق حف بالصعاب ورص بالعقبات ، كان رائدهم يومئذ نكران الذات وتضحية النفس فى سبيل المثل الاعلى ؛ على غرار سنة استنها لهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، وخلفاؤه من بعده ؛ فنالهم هنالك الاذى واصابتهم فى طريقهم النكبات فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين ؛ وما بين مشرق الشمس وبين مغربها ، وما بين جليد الشمال وسعير الجنوب ، رفعوا فوق هام البر وفوق عباب البحر اعلامهم عالية خفاقة ، مرعية الجوار عزيزة الجانب ، وضع النضال حول هامتها هالة من نور الحق وعزة الانتصار .

واننا قوم الشمال الافريقى ، ابناء الاطلس الابرار ، لاحق باحياء هذه الصفحة الصقلية وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط ، من غبار • ذلك لأنها صفحة خاصة باجدادنا فى هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ، وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تاثير عوامل شتى ، وتحت ضربات اعداء الداخل والخارج ، فضاع عنهم ما فتحوه حسا ومعنى بعد طول جـــلاد •

فعلينا ـ ونحن ابناؤهم ـ ان ندرس بروزا بهم ، تاريخهم فى حالتيه ، لنحيى ذكرهم ، وننصفهم حقهم ، ولنقيم لهم باقلامنا وفى قلوبنا ، تمثالا خالدا هو عنوان الاجلال والاعتراف بالجميل ، ثم لنستخرج من كل ذلك عظات وعبرا تنير أمامنا جـادة السير فى طريق الحياة الحقة حيـاة العمل والجد والسعادة وتحقيق الآمـال •

فهذه الصفحة الطيبة الثرية ، صفحة التاريخ الاسلامى بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقيض الله لها من يفردها بدراسة قيمة ، كما درست من قبل فتوحات المسلمين فى سائر الاقطار ، فنحن لا نجد من اخبار صقلية الاسلامية الا ما تناثر فى كتب التاريخ بين عربية وغربية ، وخاصة فى كتب ابن خلدون وابن الاثير وابن الخطيب وابن جبير ، وبعض امهات الكتب الاخرى ، على ان تلك الاخبار المقتضبة التى كانت تذكر استطرادا ، لم تكن تهتم الا بكبريات الحوادث الحربية ، وتاريخ تولى الولاة ووفياتهم على اضطراب بينهم فى الترتيب • وقل من المؤرخين من تعرض لآثار ذلك الفتح ، وما كان له من ضلع كبير فى اشراق انـوار المدنية والمعرفة على ربـوع اوروبا ؛ وبعبارة اصرح ، مدى مشاركة المسلمين الصقليين فى بناء هيكل المدنية الحاضرة ؛ فيكاد يخيل اليك وانت تتلو كتب التاريخ القديمة ان مقـام المسلمين بصقلية ما كان الا سلسلة من حروب وفتن واضطرابات ، وانه لم يكن وراء تلك الحروب والفتن سوى دماء تسفك ، ومعالم تخرب ، وحرمات تنتهك ؛ وتلك لعمرى هفوة من مؤرخينا ، علينـا ان نتداركهـا ، وعلينـا ان نسد هذه الثلمة فى هيكـل تـاريخنـا القومى العربى •

نعم ! يجمل بهذه المناسبة ، وفى هذا الميدان ان نذكر وان نعترف بجميل عالمين جليلين ، ومؤرخين مبجلين اولهما السنيور ميكايل عمارى (١) وقد نشر سنة ١٨٥٨ كتابه الحافل (المكتبة العربية الصقلية) وقد جمع فيه اغلب ما تناثر فى كتب العرب من اخبار صقلية والصقليين ، ايام دولة المسلمين ; والف كتابا حافلا باللغة الطليانية (تاريخ العرب بصقلية) فى خمسة اجزاء ضخمة ·

وثانيهما صديقى الكبير واستاذى الجليل ، السيد الوزير حسن حسنى عبد الوهاب ، مدرس التاريخ بالخلدونية سابقا ، وعضو مجمع اللغة العربية ; حيث قدم لمؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ رسالة قيمة باللغة الفرنسية (١) عن مسلمى صقلية وما كان لهم من اثر محمود فى ميادين العلم والمدنية ·

---

(١) هو صاحب السيف والقلم ، وبطل العلم والسياسة ، واحد كبار المجاهدين فى سبيل الامة والوطن ، والدرة اللماعة فى تاريخ الاستشراق الغربى على الاطلاق : ولد فى مدينة بالرمة سنة ١٧٠٦ من عائلة ربما كانت تنحدر من اصل عربى حسبما يدل عليه اسمها ، وحسبما يدل عليه اتجاه هذا البطل العظيم من احياء تاريخ المسلمين بصقلية ، وجمع آثارهم والاشادة بما كان لهم من فضل على العلم والمدنية بحيث انه قد عمل وحده فى هذا المضمار ما تنوء بحمله وقره العصبة القوية من العاملين ·

ولقد شب فى بيت ثائر ، اذ كان ابوه من رجال الحركة الوطنية الاستقلالية بصقلية ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة ; فكان ميكايل متشبعا منذ نشأته بتلك الافكار لكنه اندفع فى ميدان العلم فحقق العربية ، مدفوعا لذلك بعاطفة غريزية ولاريب ، واخذ منذ شبابه يدرس تاريخ المسلمين ; وعندما حدثت الثورة فى سبيل الحرية سنة ١٨٤٨ اندفع صاحبنا فى مضمارها وخاض غمارها ، وسمى نائبا عن وطنه فى مجلس الامة ; وتولى وزارة المالية حيث جاهد جهاد الابطال فى سبيل الشعب والمستضعفين ; ثم ترك السياسة واعتكف على الدراسة والانتاج الخصب ، لكن ثورة غاريبالدى عام ١٨٦٠ اخرجته من جديد لعالم السياسة والجهاد فشارك فى الثورة مشاركة محسوسة ، واصبح بعد نجاحها مدير المعارف بمدينة بالرمة ثم وزير المعارف للدولة الطليانية الموحدة سنة ١٨٦٦ ·

ثم اعتزل السياسة من جديد ، واخذ يدرس العربية فى جامعة فلورنسا ، وتراس بتلك

ثم نشر حفظه الله بمدينة بالرمة سنة ١٩١٠ القسم المتعلق بالشمال الافريقى وجزيرة صقلية من كتاب اعمال الاعلام ، لابن الخطيب ، مع هوامش مفيدة باللغة الفرنسية متداركا بذلك ما سها العلامة ميكايل عمارى الآنف الذكر عن حشره ضمن (المكتبة العربية الصقلية) .

* *

ولقد كان اهتمامى بموضوع التاريخ الاسلامى بصقلية قديما ، وكانت ولا تزال رغبتى فى اختراق مجاهله اكيدة ; فنشرت فى الجزء الرابع من كتابى تقويم المنصور سنة ١٩٢٦ بحثا وجيزا عن تلك الحقبة من التاريخ ، ولربما كنت قد وفقت يومئذ بعض التوفيق ، فى تعبيد ذلك الطريق .

واننى لاعود اليوم الى هذا الموضوع ، مقدما بين يدى الامجاد ، قوم الشمال الافريقى ما اوصلنى اليه جهد البحث والاستقراء عن تاريخ صقلية الاسلامية متوسعا فى ذلك ، حسبما امكننى ان اتحصل عليه من مختلف الوثائق والمعلومات وبين طيات ما وصلت اليه من كتب عربية وافرنجيه ; مثبتا على هامش ذلك ، حسب طريقتى ; اهم الاحداث الكبرى ، بالشرق وبالغرب ، حتى

المدينة مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٧٦ . واستمر عاملا جادا فى سبيل العربية والتاريخ الاسلامى الصحيح الى ان توفى بفلورانسا سنة ١٨٨٩ . ومن اهم مآثره (تاريخ المسلمين فى صقلية) فى خمسة اجزاء ضخمة . نشره سنة ١٨٥٤ . واعيد طبعه من تعليقات مفيدة وكتاب (المكتبه العربية الصقلية) جمع فيه اهم ما كتبه المؤلفون المسلمون عن صقلية . وكتاب (الآثار العربية المنقوشة على الحجارة بصقلية) وكتاب (مذكرة عن حوادث التاريخ فى القرآن الكريم) وترجم للطليانيةكتاب سلوان المطاع لابن ظفر ; ورحلة ابن جبير بصقلية وتاريخ ابن خلدون . الخ .

وقد اقام المستشرقون حفلا رائعا بمناسبة مرور مائة عام على ولادته ; وبتلك المناسبة نشر استاذنا حسن حسنى القسم المتعلق بصقليه وافريقيا من (اعمال الاعلام) .

وانى لأعتقد انه لا يتسنى للعرب الاطلاع على حقائق ودقائق تاريخ مسلمى صقلية ما لم يقيض الله من بينهم من يترجم للغة الضاد كتاب عمارى الحافل الثرى « تاريخ المسلمين فى صقلية » فهل من مجيب ؟

(1) La domination musulmane en Sicile

يمكن لقـار كتابى ان يخـرج بالتاريخ المحلى عن عـزلته ، ويـربط الحـوادث الصقلية فى مختلف ادوارها بمجرى التاريخ العالمى ٠

لكننى ـ والحمد لله ـ بعيد عن الغرور وكاذب الادعاء ! فاقول بكل صراحة، ان كتابى هذا لا يجب ان يعتبر الا تمهيدا لدراسة تاريخ المسلمين فى صقلية ; فان كنت قد علمت شيئا وسجلته ، فقد غابت عنى ولا ريب اشياء ; وان كنت قد ادليت خلال هذه الدراسة التاريخية ببعض آراء وافكار ، فما انا بمقدمها الا لكى تعرض على مجال البحث والمناظرة ، حتى يظهر من الحقائق التاريخية ما اخفته دفات الكتب ، او طمست معالمه حوادث الايام ٠

بل اننى ازيد غلوا فى الصراحة ، فاقول للعلماء والكتاب والمؤرخين من بنى قومى ، اننى ما اقدمت عـلى وضع كتابى هذا ، ونشره ، وعـرضه على النقادين ، الا لكى استفز منهم المشاعر ، واستحث فيهم الهمم ، علهم يندفعون بهمة وعزيمة وبما آتاهم الله من علم ، فى هذا الباب ، يتداركون النقص ويأتون بفصل الخطاب ، تلك هى غايتى ، وذلك هو منأى (١) ٠

واننى لأبتهل الى الله ، ان يلهمنا الحق والصدق والصواب ، ويهدينا سواء السبيل ، حتى نخـدم تاريخنا الخدمة المثلى ; فنخلد بذلك ذكـرى اجدادنا ، ونقدم الامانة سليمة لاحفادنا ٠

وما تـوفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب ٠

الجزائر ـ ١٢ ربيع الانور ١٣٦٥

(١) من المؤسف حقا ، انه لم يصدر حول هذا الموضوع ، منذ هذا النداء ، الا كتاب واحد لاغير ، الى يومنا هذا ، سنة ١٩٦٨ ، ويكاد يكون قاصرا على ذكر الادب والشعراء والاثر الحضارى ٠

القسم الاول

وصف جـزيرة صقلية ومناخها وعمرانهـا

معقل طبيعي ، صنعته يد الله في منتصف البحر الابيض المتوسط ، فقسمه الى شطرين شرقي وغربي ، فهيمن على حركة المرور بينهما . وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتي اروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، في هيأة تحد ظاهر ، شبه جزيرة قلورية ، كأن كلا منهما يريد ان يمد ذراعه نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون في بعض الاحيان حكما ووسيطا ، ولتكون في كثير من الاحايين جسرا يعبر عليه اهـل الجنوب الى اهل الشمال ، او ينحدر منه اهل الشمال الى اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريبا » اى المثلث يفصله بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلو مترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، وعـرضه ١٢٠ كيلـومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقـلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، راينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقتطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، في اتجاه واحد جبال الابينان ، وتكاد تستانف منها في نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال في الشمال الافـريقي ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلي » ولا يسع الرائي يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين في غـابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقليـة ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما » .

تـرى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هـائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى عنان السماء قمتها ، وينزل الى قـاع البحـر اصلها ، ذلك هو فلقـان « الاتنـا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتبُ التاريخ العربى ، وانـه ليثور فى بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه فى اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة ودخانا كثيفا ، فلا يبقى حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن والقرى والدساكر ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضى ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحمأ المسنون ، فكأن المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة وبين الانسان ، وكأن الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منها مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات ، والصبر على النائبات ·

فاذا نحن انحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك تتغير هيأة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادى « ليريتو » ثم يبرز الى البحر فى جمال رائع ، راس اكروتشى ·

ومن ثم نستمر فى انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخى الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخميدس (١) الاغريقى حيث اجتمع العلم والوطنية والتضحية فى ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية العديدة التى تعد فتحا للعنصر البشرى ، تراه يوالى اختراع آلات الدفاع لصد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطغيان بيد احـد الوحوش الرومانيين ·

---

(١) من اكبر علماء البشرية على الاطلاق · ولد بسرقوسة وقتل بها (٢٨٧ – ٢١٢ ق·م) من اهم اكتشافاته · الثقل النوعى وان اى جرم دخل فى الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاحه من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الخالدة التى كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستحم ؛ فاخذه الوجد بنشوة الاكتشاف وخرج من حمامه عاريا يجرى فى طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة المأثورة EUREK, EUREKA اى وجدت ، وجدت ·

ومن سرقوسة الى راس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلالى ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهنالك ينتهى الساحل الشرقى من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالى ذلك نحوا من ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبى فى حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهنالك ينصب وادى سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتى ذات الذكر الطويل فى تاريخنا العربى الصقلى ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربى فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعى والمروج ، حيث تقوم مدينة « مرصالا » ، ذات الرحيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ « طرابنة » اللطيف الشهير والذى سيمر بنا ذكره كثيرا اثناء البحث التاريخى .

عند راس كستيلا مارى ، تنحنى الجزيرة ويبتدئ الساحل الشمالى على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق ، فنراه ساحلا صخريا جبليا ، ونلاحظ فيه باديء ذى بدء خليجا تام الاستدارة بهى الشكل ، بديع الاطار ، هو خليج «كستيلا مارى » ومن عجب انه لا يحتوى الا على بليدة « الكانو » الصغيرة وبعض اكواخ لصائدى الاسماك ، فان خرجنا منه وجدنا راس « دى قانو » ومن عليائه نشرف على جون مدينة بالرمة البديعة انطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ، ومركز ادارتها الى يومنا هذا . ثم نستمر فى سيرنا مع سواحل صخر وجبال حتى نصل مدينة « مسينا » ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدأنا سيرنا حول سواحل الجزيرة . فلنتجه الآن بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين فى جبالها وسهولها وانجادها واغوارها .

الجبال : ان جبل « الأتنا » ، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر فى صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ مترا ، من ذلك كان اكبر جبال النال فى اوروبا . ولقد ادركه الهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامته بمشيب سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء ما فى قرارة نفسه

امام العالم حينا بعد حين ؛ اما مساحته فتبلغ نحوا من ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الافواه الرهيبة التى يخرج منها على الدوام دخان يكون تارة لطيفا وطورا كثيفا ؛ وتسمع منها زمجرة نار الله الموقدة وهى تتميز من اتغيظ ، فكان الصاعد هنالك يشرف من عل على جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل ٠

وجبل « الاتنا » لا يكاد يتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى٠

فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من الشرق الى الغرب وهى جبال صخرية جرداء قلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية ، ومن انواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهى سد طبيعى يحمى الجزيرة من غارات الشمال ، ويقيها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر ، وهى تعتبر امتدادا من وراء مضيق مسينا لجبال الابنين بايطاليا ، وتعتبر ايضا ، تمهيدا لجبال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعية ، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها ، اهمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة « قصريانة » ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ مترا ، والجبال التى تنحدر صوب مدينة « جرجنتى »، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا ؛ وفى هذه الجبال ثروة ذريعة من الحزف ، والملح المعدنى ، والجص ٠

وما بين هذه الجبال ، تجد وهادا ونجودا ، وسهولا ضيقة خصبة ، وغابات قليلة قفرة ٠

المياه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقى القاحل ، لا تكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها ما لا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هى تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كباقى الوشم فى ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادى القنطرة ، وقد احتفظ باسمه العربى هذا ؛ ويبلغ طوله ١١٦

كيلومترا ؛ ويروى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع ٠

اما الساحل الجنوبى ؛ فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية : واهم هذه الاودية : وادى سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلومترا وحوضه نحو الالفى (كم) مربع ٠

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية ، اكبرها شانا بحيرة لنتينى فى مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلومترا مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا وبـالتشى ٠

اما الامطار ، فمعدل نزولها فى السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المطيرة تبلغ ١١٢ يوما فى السنة ٠

المنـــاخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعية الجبال فيها ، بمناخ جميل ، وهواء معتدل ، وجو صاف ، بحيث انه ليس فى قارة اروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس ولطف الهواء ٠

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهى عند شهر مـارس مـع انقطـاع الامطار غـالبا فى شهـر جـانفى ؛ وخـلال شهرى النمو فى افريل ومايو ينزل من انسماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكى حركة الزراعة والغراسة ٠

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها هنالك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها ـ ولماذا لا تكون للرياح عادات كعادات البشر ؟ ـ انها تهب فى شهر افريل بصفة خاصة وعند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتاتى معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة فى بالرمة وسوادها نحو ٣٧ درجة ٠

أما معدل الطقس فهو فى بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعى هو ٢٦،١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بـلاد الربيع الابدى » ومن اجـل ذلك كانت مستقر

الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة ٠

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التى اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Soufre ويوجد غالبا فى مقاطعات الجنوب الشرقى ؛ فى « قالطانا سبتا » وجرجنتى و (قطانيا) وكذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلى ذلك فى الاهمية الملح المعدنى المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه ٠

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامى ، وقبل ذلك ، مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التى تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة فى بناء السفن والمراكب ٠ الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور ، وترك الحبل يجرى على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها ٠

اما الثروة الزراعية فتلك هى نعمة الله الكبرى على الجزيرة ، وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيع ، مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور ٠

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقى ، ولا يزال يوجد هنالك وافرا ، النخل الباسق الذى ينتج الرطب الجنى ، واشجار الليمون والنارنج والبرتقال والموز والزيتون ٠

والجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطانى والكتان ، وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجى زيت الزيتون ٠

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اروبا واجودها ، عند اهل الخبرة ٠

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية ، تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع ، يستهلك الاهلون فى طعامهم الكثير منها ؛ ويصبر اغلبها ويوضع فى العلب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك

صناعة ذات بالٍ ٠

السكـان ــ لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالخـرافات وتندمج الحقـائق فى الاساطير ؛ لكى نبحث عن سكـان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجرى من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام ، كانت اروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما ٠

وان كان لى ان ابـدى رأيا فى المـوضوع ؛ لا يعتمد الا عـلى الحـدس والتخمين ، فهو ان سكان المغاور والكهوف الذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية اطيب ، ومراعيها اخصب ، ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فـرعا من اجـداد البربر سكان الشمال الافـريقى ٠ وهذا البحث جدير بالاهتمام والدراسة ٠

انما الذى اثبته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية فى العهد التاريخى كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبـلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجـزيرة التى اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول = صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى ٠

ثم امت الجزيرة جموع وافرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدنيتهم اللامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتعلوا فى بودقتهم كل العناصر الاخـرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقى الاصيل او الاغريقى الصيقولى الاصل ٠

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين

لكل من الفريقين من عبيد وجند مرتزق شمل اخلاطا من شعوب البربر والقوط والوندال ·

ثم ان الفتح الاسلامى قد طبع البلاد بطابعه الخاص ؛ فترك بها من سلالات العرب والبربر ما لا يمحى اثره ، او تنعدم شمائله ، كما ترك اهل الشمال النرمانيون اثارهم كذلك بينة واضحة ، كما تركها من بعدهم الجرمانيون الذين اسسوا دولة « شواب » هنالك ·

فالعنصر الصقلى اليوم ، مزيج من شعوب الشرق بين يونان وكنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين · ولا تزال بالجزيرة جماعة لا شك فى اصلها الكنعانى ، تتكلم لسانها العربى المحرف على غرار اهل مالطة ، ولاتزا لمحافظة على شىء من طقوس من دينها الوثنى القديم ·

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها ، بله وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها فى صفة امة ، قوما اقوياء البنية قصار القامة ، نحيفى الاجسام، لا يزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و ٦١ فى السواحل وميتر و ٥٠ فى داخل البلاد ·

ولقد تغنى بعض الشعراء بجمال المرأة الصقلية ، كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال · انما كلتا المرأتين لا تتميزان بشىء عن المرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا ·

وليس للرجل الصقلى ما يميزه كثيرا عن الرجل الاسبانى ، بل انك فى اغلب الجهات تكاد تجده اسبانيا خالص السحنة : اعين سوداء لماعة ، وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى ، وخدود غائرة ، فهو بلاشك اقل جمالا من العربى الصميم ·

وفى كثير من الجهات تجد الشعر الكستناتى والعيون الشهل ، وتجد احيانا على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك فى الاوساط المثرية الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا النرمان والجرمانيين ·

والصقلى بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكاؤه احيانا دون

المتوسط ، وهو غير ميال لعلم ولا لفن ؛ وكانت الامية تغلب على البلاد بصفة مدهشة قبل الاستقلال الذاتي فهنالك تجد ، الخرافات موطنا خصبا ، والاعتقاد فى القوى الطبيعية ومفعول السحر عظيم ؛ والعادات الوثنية قد تركت هنالك اثرا لم تستطع محوه يـد الاسلام ولا يـد النصرانية ·

المجتمـع : سكان صقلية اليـوم يزيدون عن خمسة مـلايين نسمـة ، يتكلمون نوعا من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال . ويعيش الناس هنالك منقسمين الى طبقـات اجتماعية ينفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئا محسوسا · فالسواد الاعظم من الناس كـان يعيش هنالك مـع السلطة الطليانية الملكية مهضوم الحقوق مهيض الجناح فاقدا كل وسائل الحياة الشريفة ·

هنالك طبقـة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض ومـا عليها ، تسرف فى الترف وتنعم بملذات الحياة ، وتتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء؛ وترداد الاندية الفاخرة ؛ ثم هى تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعمال فلاحين لهم عليهم اغلب الحقوق التى كانت للامـراء الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبـل النظام الفاشيستى واثناءه ؛ تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلمانى ؛ وكثيرا ما مد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التى يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقـاومة الحكومة ان ارادت اصلاحا لايرضونه ؛ ومن التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة اذا ما تراكمت الضرائب عليهم ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره ·

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية اسموها « لامافيا » انتشرت فى انحاءالبلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ ونطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة لمآرب سافلة وارضاء لمطامع نفسية دنيئة ·

وتحت هذه الطائفة فى السلم الاجتماعى ؛ توجد طبقة المديرين والمحصلين والسماسرة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملة ٠

واخيرا فى اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحين وكانت تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرائى لها مثيلا ، الا فى روسيا قبل ثورتها الشيوعية او فى بعض جهات الشمال الافريقى ايام الاستعمار الفرنسى الفظيع ٠

فالطبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفى لتمييزها عن بقية الحيوان ، ثم تراها بعد ذلك ترزح تحت وطأة الضرائب العامة التى تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقلى كان افقر انسان فى رعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة اضعاف ما يتحمله الطليانى من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ كان يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ ياتمر طوعا باوامرهم وينتهى بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينيا بان الله خلقه من اجل خدمتهم ٠

اما طبقة العمال فى المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت فى بعض الاحايين لفكرة الشيوعية؛ الى ان ضربتها الفاشستية الهوجاء فسوت بينها وبين بقية العمال فى ايطاليا تحت لواء طغيانها ٠ واستمر انين العمال خافتا ؛ الى ان افلت شمس الفاشيستية ؛ وهاجمت قوات المتحالفين من انكليز واميركيين ارض الجزيرة، فلم يحرك اهلها ساكنا ، بل تقبلوا الفاتحين بصدور رحبة ملت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكانهم قالوا ان ليس فى الامكان اسوأ مما كان ؛ فمرحبا بالقادم الجديد ؛ عله يصلح ما افسده الاقدمون ٠

وبعد كفاح طويل ، نالت الجزيرة ما كانت تصبو اليه من استقلال

ادارى ، وحكم محلى ، كما سترى فى الموجز التاريخى ، فانكب احرار صقلية على اعمال الاصلاح الذى شمل الميادين الاقتصادية والاجتماعية • ولا يزال مجال العمل امامهم فسيحـا •

القسم الثانى

تـاريخ جزيرة صقلية من اقـدم عصورها الى اليـــوم

الفنيقيـون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد (١) توطن شعب الصيقول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها ، واسس ذلك الشعب المدن والدساكر، واصلح الارض ، ولم يقع اى تصادم بينه وبين رواد المدنية الشرقية بحارة فنيقيا من بنى كنعـان ، وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانـوا يدعونها « المصارف » وبـواسطتها كانت اشعة انوار المدنية الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية · وان المبادلات التجارية ولتعارف والتثالف حـول تبادل المصالح لاحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخيها فى سبيل التقدم الانسانى ، شتان بينهـا وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار ؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نيـر الاستعمار ·

سلك الفنيقيـون هنالك مسلكهم فى بقية الحـوض الغربى من البحـر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مـراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطيـة » وبانورم « بالرمة » و « صلديس » ·

الاغـريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد ، بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوى المدنية الزاهية الزاهرة ، فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقى الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل «سرقوسة» سنة ٧٣٤ قم و « قطانية » خمسة اعوام بعد ذلك و «مسينا » حـوالى ذلك التاريخ ، واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتى عام الى سنة ٥٣٦ قم ·

---

(١) فى نفس الوقت الذى ابتدات فيه هجـرات الكنعانيين الفنيقيين الى المغـرب العـربى ·

تدخل قرطاجنة : تضاءل شان الاغريق حيث كانت بلادهم ميدانا للانقسام والتناحر حول الحكم والمناصب ؛ وما كانوا يتورعون عن ايقاد نيران الحرب الاهلية فى ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطع بدرا لا معا فى سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة القدم فى بلاد الشمال الافريقى ، تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيدا لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية ، واما أتقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ وقد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتى سردينيا وكرسكا .

لقد كان النزاع يومئذ مستفحما بين الاغريق والفنيقيين فى صقلية . واصبح العنصران يتنازعان هنالك البقاء . فاغتنمت قرطاجنة الفرصة وجهزت اسطولها يحمل جندا عتيدا تحت قيادة السبط « مالى » . وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفنيقيين فى الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على لبلاد . لكن السبط مالى اخفق فى انجاز مهمتيه . وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاخلى ما احتله من البلاد ورجع خائبا الى قرطاجنة .

لم تكن الخيبات العسكرية تثنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعادة الكرة ، وارادوا قبل ذلك ان يأمنوا شر تدخل اجنبى فى الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية وحربية ، حتى لايجدوا معينا لهم فى البحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع عدو الاغريق ، ملك الفرس « اكسريس » وتحالفت فى نفس الوقت مع الرومانيين الذين لم يتالق نجمهم بعد فى سماء البحر المتوسط ؛ ووضع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتهاالثانية تحت امرة «عملكرض بن ماغون » البرقى وارسلت به الى صقلية ، فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان